

صفة الممُّلك أقرب إلى المشرع والعقل والواقع

بسم الله الرحمن الرحيم

آتَى اللهُ تَعَالَى الْمَلِكَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا، وَخَتَمَ اللهُ نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَاللَّهُ يُوْتِي مَلِكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 247]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (لِمَنْ أَلِمْ لِكُلِّ يَوْمٍ لِهَذَا الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [غافر: 16].

وَأَتَى اللهُ آلَ إِبْرَاهِيمَ: (مَلِكًا عَظِيمًا) [النساء: 54]، وَجَعَلَ صَالِحِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: (مُلُوكًا) [المائدة: 20]، وَبَعَثَ طَالُوتَ: (مَلِكًا) [البقرة: 247]، وَأَتَى دَاوُدَ: (الْمَلِكُ) [البقرة: 251]، (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) [النمل: 16]، وَقَصَّ اللهُ عَنْ: (مَلِكِ سُلَيْمَانَ) [البقرة: 102]، وَأَتَى يُوسُفَ: (مِنْ أَلْمَلِكِ) [يوسف: 101].

وَكُلُّ وِلَاةِ الْأَمْرِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ صَالِحِينَ مِنْ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ (مثل من ذُكِرَتْ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ)، أَوْ طَالِحِينَ (مثل الجبابرة والمضارعة والمقياصرة والمكاسرة والأباطرة) كانوا ملوكاً بالوراثة في أغلب الأحوال أو بالقوة والغلبة، ومنهم المصلحون دون الأنبياء، والمطالحنون فوق الكفرة. وقد ولَّى اللهُ على المسلمين - بعد نبيِّه صلى اللهُ عليه وسلم - خير أئمة: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ثم معاوية - رضي اللهُ عنهم وأرضاهم - من الصحابة، ثم تتابع المولاة من بني أمية وبني العباس من التابعين ومن بعدهم - رحمهم اللهُ تعالى -

وَحَيَّرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْعَبُودِيَّةِ وَالْمَلِكِ فَاخْتَارَ الْأُولَى.

وَاصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى تَسْمِيَةِ (الْأَرْبَعَةِ الْأُولَى: خُلَفَاءُ) تَأْوِيلًا لِلْحَدِيثِ: "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُرَادِيَّةِينَ مِنْ بَعْدِي"، وَتَسْمِيَتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ: (أَمْرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ)، تَأْوِيلًا لِلْحَدِيثِ: "خِلَافَةُ النَّبِيِّ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَكُونُ مَلَكًا".

وَلَمَّا شَكَّ أَنْ وِلَايَةَ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ بِالْتَّأْسِي بِهِمْ (كَمَا أَمَرَ اللهُ الْأُمَّةَ بِالْتَّأْسِي بِهِ) خَيْرٌ مِنْ وِلَايَةِ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - فَمِنْ دُونِهِمْ، وَأَلَّا عِلَاقَةَ لِلْخَيْرِيَّةِ بِمَجْرَدِ مِصْطَلَحِ الْخِلَافَةِ أَوْ الْإِمَامَةِ وَالْإِمَارَةِ وَالْمَلِكِ: فَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوِلَاةَ (مِنَ الصَّحَابَةِ وَوِلَاةَ بَنِي أُمَيَّةَ) بِالْخِلَفَاءِ فِي قَوْلِهِ: "لَا يَزَالُ الْمَدِينُ عَزِيزًا (وَفِي رَوَايَةٍ: قَائِمًا)، وَفِي رَوَايَةٍ: ظَاهِرًا) إِلَى اثْنَيْ عَشْرَةَ خَلِيفَةً". رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: 30]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) [النمل: 62]، أَي: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: (يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) [ص: 26]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى مِمْتِنًا عَلَى قَوْمِ هُودٍ: (وَإِذْ ذَكَرْنَا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) [الأعراف: 69]، وَعَلَى قَوْمِ صَالِحٍ: (وَإِذْ ذَكَرْنَا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ) [الأعراف: 74]، وَقَالَ عَنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أُمَّةً يُدْعُونَ بِأَسْمَائِهِمْ) [النمل: 25]، وَعَنْ آلِ فِرْعَوْنَ: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أُمَّةً يُدْعُونَ بِأَسْمَائِهِمْ) [النمل: 25]، وَتَسَمَّى خِلَافَةُ: (وَأُولَى أَنْ تَسْمَى خِلَافَةً، لِإِفْسَادِهَا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، أَبْعَدَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ!

وَلَمَّا تَزَالُ أَكْثَرُ دُولِ أَوْ رُبَا مَلِكِيَّةٍ أَوْ أَمِيرِيَّةٍ وَرِاثِيَّةٍ، وَعَلَى رَأْسِهَا انْكَلَبَتْ بِاسْمِ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ، وَكَذَا تَسْتَضَلُّ بِظِلِّهَا، وَلَمَّا تَزَالُ الْيَابَانَ مَلِكِيَّةٍ وَرِاثِيَّةٍ بِاسْمِ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ دُولِ وَإِمَارَاتِ آسِيَا وَأَفْرِيْقِيَا وَرِاثِيَّةٍ، وَلَمْ تَجْعَلْهَا صِفَةَ الْوَرِاثِيَّةِ أَدْنَى أَوْ أَكْثَرَ مِنْ جَارَاتِهَا. وَظَنَّ الْعَرَبُ أَنْ تَغْيِيرَ الْأَسْمَاءِ يُغَيِّرُ الْمَسْمُومَ؛ فَبَدَأَتْ بِتَجْرِبَةِ التَّغْيِيرِ بِمِصْرَ، وَتَبَعَتْهَا الْعِرَاقُ وَالْيَمَنُ وَالْيَمَنُ، وَلَمْ تُرْضَ النَّتِيْجَةُ شَعُوبِيَّهَا فَسَعَتْ إِلَى التَّغْيِيرِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا: الثَّوْرَةُ وَالْمَخْرُوجُ عَلَى الْوِلَاةِ بَعْدَ نَحْوِ نِصْفِ قَرْنٍ، وَكَالْعَادَةِ لَمْ يَحْمَدِ الثَّوَارُ أَوْ شَعُوبُهُمُ الْعَاقِبَةَ. وَاخْتَارَ اللهُ لِبِلَادِ مَجْلِسِ التَّعَاوُنِ الْخَلِيفِيِّ وَأَهْلِهَا الرِّضَا بِقِسْمَتِهِ، وَالْمَحَافِظَةَ عَلَى شَرْعِهِ فِي مَعَامَلَةِ الْوِلَاةِ (غَيْرِ شَرْذِمَةِ ضَالَّةٍ لَمْ يَخْلُقْ لَهَا فِي الدِّينِ وَلَمْ فِي الدُّنْيَا)؛ فَصَارَتْ دُولُ الْمَجْلِسِ مَثَالًا لِحَسَنِ الْعَاقِبَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالِدِّينِ وَالِدُّنْيَا وَالْأَمْنِ وَالْغِنَى. وَسُنَّتْ دَوْلَةُ الْبَحْرِيْنَ سَنَةً حَسَنَةً بَعُودَتْهَا إِلَى الْفِطْرَةِ وَتَحَوَّلَتْهَا إِلَى الْمَلِكِيَّةِ الْوَرِاثِيَّةِ بَعْدَ أَنْ ظَنَّ الْعَرَبُ أَنَّ الْمَلِكِيَّاتِ أُخْرَى بِالنَّقْصِ مِنْهَا بِالزِّيَادَةِ، فَأَخْلَفَ اللهُ بِفَضْلِهِ ظَنَّهُمْ.

وَلِعَلَّ دَوْلَةَ قَطْرَ (وَغَيْرَهَا) تَنْتَلُو الْبَحْرِيْنَ فَتَخْلَفَ ظَنُّ السُّوءِ.

أَمَّا دَوْلَةُ التَّوْحِيدِ وَالسَّنَةِ (الْمَمْلَكَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمَسْعُودِيَّةُ) فَهِيَ خَيْرٌ مَثَلٌ عَلَى حِفْظِ فِطْرَتِهَا وَحِفْظِ شَرِيعَةِ اللهِ لَهَا وَلِكُلِّ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ، وَكَانَ وِلَاةَتَا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ وَالثَّلَاثَ عَشَرَ الْمَهْجَرِيِّ يَلْقَبُونَ بِالْأُمَّةِ، وَكَانُوا بِفَضْلِ اللهِ وَمَنْتَهُ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ الدِّينِ

بالعودة به إلى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته - رضي الله عنهم - وإزالة ما علق بالدين من البدع، خاصةً ما تلبَّس به تديُّنُ أكثر المسلمين من الشرك الأكبر بدعاء أو ثابن المقامات والمزارات والمشاهد والمأضرحة (أو ثابن وأنصاب الجاهلية الأولى والمأخرية)، ولقب ولادتها في القرنين الأخيرين بالملوك والأمراء، وقامت دولتهم المباركة بما قام به أجدادهم من الأمر بإفراء الله بالعبادة والمنهي عن صرف شيء من الدعاء وغيره من العبادة لغير الله أو إشراكه معه، والأمر باتباع السنة، والمنهي عن الابتداع في الدين، وما دون ذلك من شريعة الله تعالى. حفظها الله وحفظهم قدوةً صالحةً للمسلمين وذخراً للإسلام.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن المحصين عفا الله عنه، تعاونوا على البر والتقوى وتحذيراً من الإثم والعدوان.

1433/2/11هـ